ثقافة وأدب

بقلم: فاضل عباس الهادي

قضية فلسطين ... والرواية العربية المعاصرة

لم تعد اهمية الاعلام (*) في العصر الحديث خافية على احد وكذلك الدور الفعال الذي تمارسه وسائل الاتصال الجماهيري . وليس من الخيال القول بان العمل الفني او الادبي يلعب دوره في نشر الحقيقة وبالتالي المساهمة في ترويج الحس الانساني وتثبيت دعائم المجتمع البشري على اسس العدالة والمساواة . رغم ان هناك من يقول بان الاسلوب المباشر في الاعلام اكثر فعالية من الاسلوب « المنوي » وهو في هذه الحالة العمل الفني او الادبي المعقد والصعب على مدارك الانسان العادي. صحيح ان الاديبات السياسية منبع نستقي منه معلوماتنا عن مجريات الحياة السياسية اليومية . الا انها قد تكون احادية الجانب من حيث اهتمامها بالظاهرة السياسية وتركيزها عليها دون سواها . كما ان العمل الفني (اللوحة او المنحوتة) او العمل الادبي (الشعر ، القصة ، الرواية ،) الذي يتناول ، حسب قدرة الفنان او الكاتب وكل في مجاله ، الظواهر الاجمالية او الحقيقية من ابعادها العديدة وما يمكن ان نسمية بالكلية يعبر في نهاية التحليل الشهادة الكاملة على العالم المعقد الجوانب والظاهرة الانسان اجمالا .

ان رصد الوضع الانساني من جوانبه المتعددة امتياز الابداع الحقيقي . والقضية الفلسطينية التي فرضت نفسها على العالم جزء لا يتجزأ من ظاهرة الانسان. وكل كاتب او شاعر او فنان عربي ينظر الى واقعه بمعزل عنها انما يحرم رؤياها من الكامل المنشود والرؤية المترابطة . ومن الملاحظ ان الكتاب والفنانين اخذوا يهتمون مؤخرا وبشكل واضح واكيد ومركز بما يمكن ان نسميه « الجانب السياسي في الانسان » . وفي اوروبا يعتبر بيتر فايس الكاتب المسرحي الالماني خير مثال . وفي امريكا نجد الروائية ماري ماكارثي تكتب عن فيتنام كما يفضح بربرية السامة الامريكان وضحيتهم الانسان من اجل مثل زائفة وبورمان ميلر الراديكالي الذي نظم اكبر مسيرة احتجاج ضد الحرب الامريكية ضد الشعب الفيتنامي واصدر كتابا مهما بعنوان « جيوش الليل » . الامثلة غفيرة ولا تحصى على مساهمة المبدعين ، ضمير الانسانية النابض الحي ، في الدفاع عن حقوق الانسان المغتصبة . فماذا قدم المبدعون العرب من مساهمة في قضيتهم الاولى . وهل يمنعهم الاستغراق المافيزيقي من الوجه الى اعتمالات البشر اليومية والحيف اللاحق بقطاع واسع ومهم من شعبهم العربي الفلسطيني ؟ لا نريد ان نكون من الجاحدين لمساهمات الكتاب العرب في القضية الفلسطينية الا اننا لا بد وان نشير الى ان مساهماتهم جاءت متأخرة الى حد كبير وفي المجالات الادبية كافة من رسم ونحت وقصة وشعر .

فمن المتفق عليه ، تقريبا ، بين المهتمين باصداء القضية الفلسطينية على الرواية العربية ان جورج حنا ، الطبيب اللبناني الماركسي كتب في سنة ١٩٥٢ اول رواية عربية عن محنة اللاجئين الفلسطينيين (١) . والرواية وهي بعنوان « لاجئة » تمتاز بالسذاجة . ونعتبرها سذاجة لعدم وجود وصف اكثر دقة يمكن ان يعطي نفس المعنى بدون ان يشير الى نية القارىء المتعمن الذكي في توجيه اصبع الادانة .

والرواية على بساطتها وبساطة محتوى التقديم الذي كتبه لها الدكتور جورج حنا تعتبر علامة مهمة على الطريق . وهي ذات نبرة ميلودرامية وعقلانية باردة في بنائها وتأثيرها . الا انها لم تستقبل استقبال المكتشف المتعب لبقعة جغرافية جديدة وارض صالحة جديدة للنضال من اجل العدالة الانسانية ولصالح بشر طيبين بعيشون تقزع تحت ظل الحراب . وقد تجاهل النقاد الرواية وان وجدت طريقها اللائق الى نفوس الاف القراء العرب في كل مكان . وان لرواية « لاجئة » دورا رياديا واضحا والدور الذي لعبه ، وان كان عديم الاثر على تطور مستقبل الرواية العربية ، دور تبشيري وتعليمي نبه الروائيين العرب الى موضوع كانوا غافلين عنه وان كان تحت انوفهم .

وكان من الطبيعي ان تقطع الرواية العربية المكتوبة عن القضية الفلسطينية من سنة ١٩٥٢ الى سنة ١٩٦٧ شوطا لاهثا وتطيئا الى ان جاءت حرب الايام الستة فاحدثت في وجدان القصاصين العرب هوة لا تردم من الندم فاصبح من العليدي جدا الحديث عن ادب ما قبل حزيران ١٩٦٧ وما بعد حزيران حيث كتبت روايات عديدة يمكن تسميتها بالروايات الحزيرانية . لقد شهدت العقلية العربية تطورا ملحوظا بعد صدمة حزيران وما صدر من اعمال فنية وادبية خلال الفترة القصيرة التي تلت حزيران يشهد على القول السالف الذكر. وخلال اربع سنوات وئيف صدرت اعمال ادبية تضاهي في اهميتها النوعية مجمل ما صدر من سنة ١٩٥٢ حتى سنة ١٩٦٧ .

ولم يساهم الكتاب العرب بعد صدور رواية « لاجئة » في التاريخ المذكور الا مساهمة ضئيلة . فاحسان عبد القدوس الذي كتب عشرات الكتب عن الغرام والوسادة الخالية لم يكتب الا قصة قصيرة او قصتين عن اللاجئين ومعاناتهم من الاحتلال الاسرائيلي . ويوسف السباعي ، وهو كاتب مشهور شهرة عبد القدوس ، لم ينشر ، كما يبدو ، الا رواية واحدة (٢) تصور القضية بشكل عابر يفتقر الى المستوى الادبي الجدير والقادر على شق طريقة بجدارة الى نفوس القراء الاجانب. اما القصاصون المصريون الاخرون البارزون امثال نجيب محفوظ ويوسف ادريس ومحمود تيمور والمسرحي – الروائي توفيق الحكيم فلم ينشروا اعمالا قصصية او روائية من شأنها ان تعكس اهتمامهم بالقضية الفلسطينية . القسم الاكبر من الروايات والقصص التي تتناول القضية ، فنيا ، انجزه كتاب فلسطينيون . وهذا رائع بقدر ما هو متوقع ومبرر ويبعث على الرضا والامتنان والفخر . ونخص بالذكر كلا من غسان كنفاني وسميرة عزام . ان بتصدى الكاتب الفلسطيني لقضيته وياخذ على عاتقه حمل صليبه امر يحمل في ثناياه ملحمية هوميروسية وبطولة هرقلية ومعاناة سيزيفية ما بعدها معاناة . وتصديه هذا رد حاسم على الالاكتراث العام والمقاربة بقضيته في سوق السياسة واروقة الدبلوماسية الزائفة. وليس عيبا ان تمتاز الروايات والقصص الفلسطينية بالحنين الى « الفردوس المفقود » و « الماضي الذي كان ولم يعد » ما دام الحنين حنينا ارضيا ما يزال في حيز الممكن والامكان وليس نمتيا طوباويا محضا ومجردا من الاساس المادي. ولمساهمات حليم بركات استاذ علم الاجتماع الذي رفضت الجامعة الامريكية مؤخرا تجديد عقده وفررت الاستغناء عنه مكان الصدارة في الكتابة عن القضية الفلسطينية . كما لا ينبغي ان ننسى مساهمة الناقد الادبي عيسى الناعوري في روايته القصيرة « بيت وراء الحدود » الصادرة في بيروت سنة ١٩٥٩ (٣) الا ان المساهمة شيء والمساهمة الواعية شيء اخر . ولا بد ان الاولوية تسجل ليس للاعمال التي صدرت قبل غيرها من ناحية التسلسل الزمني وانما للاعمال الناضجة العميقة التي تصور وتؤثر عن وعي وتمكن من الادوات الفنية وسيطرة عليها . فهناك الكثير من الاعمال الادبية القليلة القيمة الفنية بسبب عفويتها . وكمثل على هذا نذكر انه يكفي عقد مقارنة نقدية بين « لاجئة » لجورج حنا الصادرة سنة ١٩٥٢ وبين « عودة الطائر الى البحر » لحليم بركات الصادرة بعد سبعة عشر عاما ، ذلك لاننا سنعتبر رواية بركات المذكورة (٤) شهادة اكثر معاصرة وعمقا وتمازجا بين وضعية واضحة على حبكتها ومسار تطور احداثها وشخوصها . ولحليم بركات ، المعروف بدراساته البدائية السوسيولوجية واهتمامه بحركة الطلبة ، مجموعة قصص قصيرة باسم « الصمت والمطر » (٥) وهي لا تخلو من القصص التي تتناول عذاب الفلسطيني وبحثه عن نفسه وسعيه للانتماء من جديد الى ارضه وتاريخه ، رواية اخرى صدرت قبل حرب حزيران بست سنوات ومعنونة « ستة ايام » (٦) فكأنما تنبأ بحرب الايام الستة قبل ست سنوات من وقوعها الراجيدي !

وبينما تصور « ستة ايام » تخلف القرية العربية وانحدار العرب نتيجة هذا التخلف نرى ان « عودة الطائر الى البحر » تخرج عن نطاق القرية الى ما هو اعم واشمل ، اي الى المدينة . ورمزي بطل الرواية المذكورة يشبه المؤلف الى حد ما . فهو شاب يحب السفر ومثقف غير متحزب يعيش التزام ويعاني من الانشطارات الوجدانية التي يعاني منها الكثيرون من ابناء البرجوازية الصغيرة وتارجحهم بين ولائهم الطبقي وتطلعاتهم الى عالم دينامي وعادل في نفس الوقت . وهو ، كالعديد من المثقفين العرب ، موزع بين حبه للحرية وبين خوفه من اغتيال الحرية في المجتمعات التوتاليتارية واساءة فهمها في المجتمعات الراسمالية الليبرالية . وهو ، مثلهم ايضا ، يعاني من عيوب المجتمع العربي وعلى قدر لا باس به من الشخيص « ووضع الاصبع على الجرح الحقيقي » . ووجهات نظره السياسية بدون شك معادية للولايات المتحدة الامريكية ومتعاطفة مع بلدان العالم الثالث ونضال الشعب الفيتنامي . وعلاقة البطل مع ماميلا الشابة الامريكية الرافضة (الهيبية) لا تعني تعاطفه مع امريكا وماميلا ، كالعشرات من الامريكيين الرافضين لحضارتهم الرأسمالية ، يمكن ان تشكل نواة الثورة في امريكا او مرحلة الثورة الاولى : هدم اسس وقواعد العالم المتعفن . لقد اختارت ماميلا حياة المنفى الاختياري والابتعاد عن الوطن ، وان كان اختيارها هذا يضعف من زخم الثورة ، حيث ان مهمة المثقف والانسان الواعي هي ان يناضل قدر ما يستطيع ضد قوى القهر والاللانسانية في وطنه . الا ان اختيار المنفى والترحال يمكن ان يعتبر احتجاجا سلبيا . فاذا كان المرء غير قادر على مجابهة السلطة القمعية والفاشية في وطنه فعليه على الاقل ان يغادر ذلك الوطن ليحافظ على نقائه وشرفه ويمنع ذاته من التلوث بممارسات السلطة القمعية واغراءاتها المادية.

ولقد افلح بركات في روايته بتصوير المأساة العربية في فلسطين وخارجها واستعان بمقتطفات من الشعر والاغاني ليعزز من الثقل المادي المرهق بماديته ومباشرته برمزية الغنائي الموجز والمعبر والنفذ من المفردات الوحي و « الطازج » الذي لم يلوث تماما بالاستعمال اليومي الرتيب . والرواية كما يراها بركات تعبير عن رؤيته الخاصة للواقع في حالة صيرورة دائمة لان الواقع هذا في حالة تناقض.

وهو يعتقد بان من الضروري ان نقرر اي جانب من نحن ؟ جانب الانظمة ام جانب الشعب . وعلاقته بالواقع علاقة نقدية : علاقة فعل بالواقع لا علاقة انفعال سلبي وقبول .

واذا كانت رواية بركات الاولى « الغيم الخضراء » الصادرة سنة ١٩٥٦ « شبه سيرة ذاتية » فان رواية « ستة ايام » هي « سيرة المجتمع نفسه » وفيها نؤكد على « ان المجتمع العربي في وضعه الحالي غير قادر على مجابهة الحداثة » . اما « عودة الطائر الى البحر » فهي « وثائقية » وفيها اراد بركات « الارتفاع الى مستوى الرمز ووصل الرمز بالواقع اتيه . انها رواية غير محايدة انها مطالبة بتغيير الواقع الحالي » (٧) .

ولمدلي عمران مساهمتها الكريمة ايضا . وقد طرقت في روايتها « عصافير الفجر »(٨) موضوعا لا بد من طرقه: الفدائيين الفلسطينيين وحياتهم وافكارهم . وابطال الرواية ثلاثة فلسطينيين ينتمون الى حركة المقاومة الفلسطينية كسبيل اوحد ومشروع لتحرير الاراضي العربية المغتصبة . فمريم تغرد الانضمام الى حركة المقاومة عقب الازمة حيث تبرز الشخصية الفلسطينية بوجه جديد بعد ان خمرتها سنوات المساومات والبلادة السياسية . اما سلمان ، شقيقها ، فيغور ايضا ما قررته شقيقته فيغادر المانيا حيث كان يدرس . اما الشخصية الثالثة الرئيسية في الرواية فهي سهير .

و « عصافير الفجر » رواية جادة لا مجال فيها للكوميديا والاستخفاف . فقد قرر الابطال ان ينتقلوا الى عالمهم الشخصي وهمومهم الذاتية ليكرسوا انفسهم لقضية جماعية مشرفة للنضال فيها مقام السبق ودرجة الاولوية . وغالبا ما تشير المؤلفة الى بروت عليانها « مدينة ملونة » لتشير ، بشكل مباشر، الى عدم اكتراث سكانها للقضايا السياسية واستغراقهم في حضارة البرج وتفضيلهم لقشور الحضارة الاوروبية وتطورهم من القيم الروحية الاصلية .

ومن الطبيعي ان يبحث العربي، وقد اصيب بعصاب الفشل والتردد بعد النكسة، عن تبرير جديد للوجود وقد وجده ابطال عمران في ممارسة العمل اليومي وتكريس انفسهم وقدرتها نهائيا وبقداسة من اجل التحرير . فحينما يكتشف العربي بانه كان نائما على اوهام الجرح الحقيقي » . ووجهات نظره السياسية بدون شك معادية للولايات المتحدة الامريكية ومتعاطفة مع بلدان العالم الثالث ونضال الشعب الفيتنامي . وعلاقة البطل مع ماميلا الشابة الامريكية الرافضة (الهيبية) لا تعني تعاطفه مع امريكا وماميلا ، كالعشرات من الامريكيين الرافضين لحضارتهم الرأسمالية ، يمكن ان تشكل نواة الثورة في امريكا او مرحلة الثورة الاولى : هدم اسس وقواعد العالم المتعفن . لقد اختارت ماميلا حياة المنفى الاختياري والابتعاد عن الوطن ، وان كان اختيارها هذا يضعف من زخم الثورة ، حيث ان مهمة المثقف والانسان الواعي هي ان يناضل قدر ما يستطيع ضد قوى القهر واللاانسانية في وطنه . الا ان اختيار المنفى والترحال يمكن ان يعتبر احتجاجا سلبيا . فاذا كان المرء غير قادر على مجابهة السلطة القمعية والفاشية في وطنه فعليه على الاقل ان يغادر ذلك الوطن ليحافظ على نقائه وشرفه ويمنع ذاته من التلوث بممارسات السلطة القمعية واغراءاتها المادية.

ولقد افلح بركات في روايته بتصوير المأساة العربية في فلسطين وخارجها واستعان بمقتطفات من الشعر والاغاني ليعزز من الثقل المادي المرهق بماديته ومباشرته برمزية الغنائي الموجز والمعبر والنفذ من المفردات الوحي و « الطازج » الذي لم يلوث تماما بالاستعمال اليومي الرتيب . والرواية كما يراها بركات تعبير عن رؤيته الخاصة للواقع في حالة صيرورة دائمة لان الواقع هذا في حالة تناقض.

وهو يعتقد بان من الضروري ان نقرر اي جانب من نحن ؟ جانب الانظمة ام جانب الشعب . وعلاقته بالواقع علاقة نقدية : علاقة فعل بالواقع لا علاقة انفعال سلبي وقبول .

واذا كانت رواية بركات الاولى « الغيم الخضراء » الصادرة سنة ١٩٥٦ « شبه سيرة ذاتية » فان رواية « ستة ايام » هي « سيرة

(*) من العدد ١١ من شؤون فلسطينية الذي صدر في ١٩٧٢/٧/١

كتب صدرت حديثا

شقة في شارع ابي نواس
رواية للقاص العراقي برهان الخطيب صدرت عن دار العودة

تجرى احداث هذه الرواية في الشهور القليلة التي تلت شباط ١٩٦٣ ، وربما يبدو للقارىء العادي ان لا علاقة تربط احداث وشخصيات الرواية باحداث تلك الفترة ذلك الربط السجلي الوثيق ، فالمؤلف لم تجرح الاحداث تعمق ، واكتفى بخدش سطحها لذا لم تأت الرواية (سجلا) لتاريخ فترة سياسية معينة ، غير انه من جهة ثانية غاص المؤلف في اعماق شخصيات الرواية تعمقا بحيث جعلها (او هكذا يبدو) اسقاطات ذكية تجاوز فيها شخصية (الفرد) الى (شخصية) العقلية السياسية التي تطاحنت في تلك الفترة شراسة ودموية .

والرواية عن ثلاثة شبان يسكنون في شقة في شارع ابي نواس .

سامي ، عداي ، كاكه حميد . وفي ظروف حرب الشمال ووفود اللاجئين الى العاصمة يعثر حميد على فتاة كردية شابة فقدت اسرتها . تجيء بها الى البيت، تعاجأ بان البيت قد فتش وانه ملاحق ، فيعهد بالبنت الى سامي الذي لا يجد لديه القدرة على الصمود في وجه (عداي) الشرس السافل وهكذا يغتصب عداي الفتاة بالقوة وتظل معهما حتى تحمل سفاحا ثم تجهض لتبدأ حياة اخرى ، تصادف خروج حميد من المعتقل وتغلبه على جراحه وهزيمته واستعادة عزمه وصلابته .

وتجري خلال الرواية تعرية الشخصيات من خلال منلوجات غامضة في البساطة والصدق .

وصياغة الشخصيات بعد ذلك تخرج من الخاص الى العام بشكل واضح جدا فسامي هذا الانسان السلبي الاناني الخامل يمثل تلك الفئة التي لا يعنيها من امر الدنيا باكثر مما يمسها مباشرا ، الفئة السلبية التي تعتبر ان الامور العامة لا تعنيها بشيء وان الارض تدور رغم كل شيء وان اي شيء بالتالي مساو لاي شيء ، وان لا فائدة من العناء والجهد فحياتنا لا تتقضى يوما ولا تزيد اخر اذا ما حدث شيء او لم يحدث !.

فراء مهزوما يحتقر نفسه لاتخاذه موقفا معينا ثم لا يلبث ان يعاود اتخاذ نفس الموقف وبهذا ينكرس احتقاره لنفسه ويتاصل فيدفع احساسه هذا بان يبرر لنفسه انه ان كان في الخضم او كان خارجه فلن يغير هذا من الامر شيء ، وان الخطأ في رعونة العالم الخارجي الذي يحياه .

انه الانسان السلبي الذي لا تملك المبادرة والذي ينتظر ان يسأله احد ليجيب وبالتالي فهو هذه الفئة من الناس التي لا تناسب ظلمانها مجابهة السلطة فهو قوي حين تسمح له السلطة بذلك ، وهو ضعيف حين لا تسمح ، وهو مدرك شاعة (وجهه) هذا ولذا فهو يحتقر هذا الوجه لكنه يحبه حين يبرر لنفسه تلك الشاعة ، لذلك نجده رغم شعوره بعدم انتاجيته وفشله مرغما على السير بنفس المواصفات رغم وعيه التام بتفاهة هذه المواصفات .

ونتيجة لاحساسه بانه غير قادر على المواجهة فهو يتشبث باي انسان قادر علما حتى لو كان هذا الانسان انتهازيا ، هذه هي بالضبط من اسوا صفات (الفئة الضائعة) التي لا تملك الفكر والبرنامج والتي يلغي باعماء عدم قدرتها على المواجهة على كاهل ايه فئة قادره عليها ، معتمدة بذلك دعما لتلك الفئة بغض النظر عن ماهية توجهها . وهذا يؤدي بالضرورة الى تكرس الاحساس بالمهانة والضعة (ماذا يستطيع ان يفعل له هو القصير النحيف الاصلع ، وذلك عداي الطويل العريض ذو الراس الكبير) .

لذلك نرى سامي يشعر براحة كبيرة حين يسلم نائه لي يستطيع مواجهة (عداي) وبالتالي فهو يمكن ان نحس بالراحة لكونه بعيدا عن المشكلة وانه لم يشارك شرها او خيرها من قريب او بعيد ، لذا نعلن استسلامه « لقد فعلت كل ما في استطاعتي وانت المسؤول وحدك عنها » وهكذا كانت راحة سامي في ان يجد المسؤول الذي يعفيه من التفكير في ان هناك مشكلة تنتظر منه حلا .

اما (عداي) فهو هذه الفئة الانتهازية التي لا تقيم وزنا للمبادىء « فان تكون شريفا يعني ان تكون احمق » ، الوصولية التي تبذل كل ما في وسعها لتبدو بالوجه الذي يلائم المناسبة ، التي لا يهمها ابدا موقع الاخرين ، فالاخرون مسخرون بشكل ما لخدمة اغراضها ومنافعها .. هذه الفئة التي تتمتع بوعي لموقعها ووعي للظروف المحيطة بها ، لكنها تنحرف بهذا الوعي الى حيث مصالحها بدلا من توظيف وعيها للامور في طريق ايجاد البديل الافضل وللتغيير الجذري للواقع المرفوض ، فالواقع مرفوض لكنه يجب ان يظل كما هو طالما وراء ذلك مكاسب شخصية وذاتية .

وهو بالتالي اسقاط لتلك الفئة الانتهازية التي تستمر موقف غيرها لدعم مواقفها والوصول الى غاياتها .

اما (حميد) فهو الانسان الملتزم الذي يملك القدرة على العطاء والتضحية لكنه يفتقر الى تجربة المجابهة المكشوفة مع العدو، لذلك فقصوره يعطيه حجما اكبر مما تفرضه قدراته واستعداداته ، فهو يفتقر الى المقياس العملي الدقيق لتحديد حجم قدراته بالنسبة الى حجم المواجهة فيراه يحتقر (النائمين المترفين) لكنه (ينبذ) هو الاخر ويظل لفترة طويلة يعتقد انها نهايته .

ونظل (نعيمه) التي هي محور الرواية، الانسانة الضائعة البليدة المستسلمة الموغلة في الاستسلام ، التي لا نستطيع ان نتوجه احاسيسها الى موقف ، ولا تفعه القهر الواقع عليها .

انها القضية التي تفتقر الى الفكر والبرنامج والوعي ، والتي خشي الانتهازيون من تغلل مسؤوليه حماسها فحلوا عنها للاقوى فاستغلها الانتهازيون للوصول الى غاياتهم بينما غاب عنها الملتزمون منشغلين بمعزفهم ، وكان اجهاضها فضحا لمواقف هؤلاء جميعا وكان نزفها نزيف كل الجروح، وكان بعثها ، الامل الذي يظل يملك الشرارة التي يسولدها الغادرون .

ربما تكون هذه اول رواية تناول هذه الفترة من تاريخ العراق ، وكانت المفاجأة انها جاءت هادئة تصخب ، او ربما صاخبة بهدوء ، قد يعتقد القارىء في البداية انه امام عمل مردد او مفرق في (الجبن البرجوازي) لكنه يكتشف بعد قراءه تحليلية جاده انه امام عمل غير منفعل لكنه فعال ، وبعيد عن الاسلوب البرجوازي في انتشال الذات من تبعات الهزيمة وتوجيه اصبع الاتهام الى (الاخرين) فالاخرون هناخاصوا في طريق وصولهم الينا مستمع ممارساتنا الخاطئة ، وان الانتقال من مواقعنا الى المواقع التي نريد تقضي بالضرورة بسف هذه الممارسات سعفا تكون بدايته النظرة العلمية الجادة والتخطيط العلمي المدعم بالنظرية .

---

١ – حنا لخاسك في مقال حول الموضوع في مجلة الشرق الاوسط ، ١٩٧١ .

٢ – ارملة من فلسطين. القاهرة . الشركة العربية للطباعة . ١٩٥٩ .

٣ – منشورات بودان . بيروت .

٤ – صدرت عن دار النهار للنشر، ١٩٦٩ .

٥ – صدرت عن دار محلة شعر، ١٩٥٨ .

٦ – عن دار مجلة شعر ايضا ، ١٩٦١ .

٧ – العبارات المحصورة بين اقواس والعبارات التي سبقها نقطتان مما قاله بركات في ندوة نقدت في دار الفن والادب مساء الاثنين ١٩٧٢/٥/١٥ .

٨ – صدرت سنة ١٩٦٨ عن دار الطليعة للطباعة والنشر في بيروت .

٩ – صدرت الرواية الاخيرة سنة ١٩٧٠ عن دار العودة . ولكنفاني كتاب حديثان بالعربية : الادب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال وقد صدر سنة ١٩٦٨ عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، وفي الادب الصهيوني وقد صدر سنة ١٩٦٧ عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية ، سلسلة دراسات فلسطينية رقم ٢٢) .

١٠ – شارك في الندوة المشار اليها كل من حليم بركات وغسان كنفاني ويوسف حبشي الاشقر واصلي نصر الله ونور سلمان .

١١ – تفتقد الروايات الفلسطينية الروايات التي تناول القضية الفلسطينية قبل حزيران وبعده ولا تفقد الروايات التي كتبها فلسطينيون . فكما هو واضح هناك العديد من الكتابات الادبية القصصية تصور جانبا معينا من القضية من تأليف عرب غير فلسطينيين .

القصيرة وعدة روايات منها « ما تبقى لكم » و « ام سعد » و « عائد الى حيفا » (٩) الى جانب ممارسته المستمرة للصحافة وعلاقته المباشرة بحركة المقاومة . وهو ، كما اشرنا ، من اوائل الذين كتبوا عن القضية الفلسطينية اعمالا ادبية ناضجة في محتواها وطريقة تناولها .

ومن عمران نفكر غسان كنفاني الشمولية او الكلية التي اشرنا اليها في بداية مقالنا هذا . ففي ندوة عقدت في دار الفن والادب في الخامس عشر من مايو ١٩٧٢ عن الرواية والواقع (١٠) وعما اذا كان الادب تعبيرا عن الواقع ام هروبا منه الى الماضي او مجابهة الحاضر اشار كنفاني الى ان الروائي هو كل هذه العوالم مجتمعة. واكد على ضرورة السلح بالوعي وان الفن سلاح هدفه التغير ، وان الفن يوعان : اما ان يكون خدمة للقيم السائدة ام ثورة عليها. ومن الادلة على فكره الشمولي اعتباره الانسان كونا مصغرا ومحركا للتاريخ. وقد اشار الى ان القضية الفلسطينية كانت محور اهتمامه منذ البداية وكان في نواكيره الكتابية يرمز لها ولا يتحدث عنها بالتفصيل او المباشرة ، الى ان نشر روايته « رجال في الشمس » حيث وجد في اطار القضية الفلسطينية الرمز والمسرح الاساسي للبطل الذي يمثل الانسان في صراعه ضد قوى الشر والطغيان في كل مكان وفي كان فلسطينيا ، جغرافيا . والانسان الفلسطيني، بالنسبة له، رمز للانسان وصراعه من اجل ان يكون سيد مصيره .

صحيح ان ابطال كنفاني مهزومون وصحيح ان روايته تنهي بهزيمة البطل . الا انها هزيمة تحمل في ثناياها بذره المستقبل . وتشخص الكاتب سبب الهزيمة افتقار ابطاله الى الوعي وتشير الى ان الغضب وحده لا يكفي للانتصار ولا بد من اقتران الوعي بالغضب .

واذا كان الفلسطيني المغرب بالاكتراث لا يستطيع العودة ، ابدا ، وجغرافيا في الوقت الحاضر ، الى ارضه فلم لا يعود افرادا .

وهذا ما تفعله كل من بطلي الرواية « عائد الى حيفا » وزوجته . حيث يعبران الحدود ويواصلان طريقهما من رام الله الى بيتهما القديم في حيفا ، البيت الذي كانا سكناه قبل الهجرة. وكانا طوال الطريق يفكران وبسرحان الماضي فيعرف بانهما كانا اطفالا قدصما طفلا لهما وعمره عدة شهور وان اسمه خلدون . بعد ان يصلا الى بيتهما يجدان انه لم يتغير الى حد كبير وان عائلة يهودية ، بولوسية الاصل ، سكنت فيه بعد ان قبلت سبي طفل مجهول الابوين كشرط للسماح لها بسكناه .

بعد انطار حافل بالتوتر وحديث لا يقل توترا يدخل شاب يرتدي بذلة عسكرية اسرائيلية . الا انه يرفض فكرة العودة الى والديه الحقيقيين ويتمسك بيهوديته .

نسير الروائية قصة على جانب كبير من الاهمية وهي « عقدة الذنب » التي يشعر بها الاب لانه ترك ولده الصغير وهاجر بدون ان يعلم عن مصيره شيئا. واهمية موضوع « عقدة الذنب » تكمن في ان بالامكان تعميمه واعتباره حالة عامة بين الفلسطينيين العرب . الا يشعر الفلسطيني بتأنيب الضمير لانه هجر وطنه مكرها ؟ وهل شعور بطلي كنفاني به نتيجة هجر خلدون الصغير الا نموذجا مصغرا ومثالا خاصا على حالة عامة ؟

بعد هذا « الجرد » السريع لاهم الروايات الفلسطينية (١١) من خلال ابرز اقطابها لابد ان نشير الى ان الرواية الفلسطينية ما زالت ملحة وناضجة في حضورها وحيويتها . انها لم تتحول بعد الى تاريخ ، وان كان العديد منها سيحتل طريقه الى حيث نصبح من كلاسيكيات الادب العربي وقممه البارزة . وعلينا ان لا نسمح للقصة ان تنام على رفوف التاريخ .

لان شرعية المستقبل سديننا . علينا ان لا نسمح لهذا ابدا . ولا يمكن ان نبرر ما نسميه « الحتمية التاريخية » الخلي و « برد الجبل على الغارب » . فما من حتمية اكبر من حتمية اصرار الانسان . ان الانسان هو الذي يصنع التاريخ . وليس العكس . ولا بأس بان تكون الممارسة اليومية في سبيل الوعي الهادف مقرونة بالابداع الادبي او الفني . ولنصبح الرواية العربية شاهدا جديرا على القضية الفلسطينية ولتصور عيوب المجتمع العربي التي ادت الى اغتصاب فلسطين .

واذا كان الكتاب العرب قد ساهموا في اثراء بعض ما نجمع من طن على الوجدان العربي وكتبوا روايات حزبرانية عديدة فلا بأس من ان نوقع رواية « المولودة »(١) رواية واحدة فقط ، علها تكون الشهادة الكاملة على بطولة المقاومة واقدامها ومن ثم اندحارها البطولي في الجبل الاردني . ولا بأس من ان نوقع مقدم ذلك اليوم الذي تنبع الروائي الفلسطيني فيه طريقه الى قلوب القراء على جانبي الاطلسي وحتى بالاستعادة من اساليب الكتاب المصهينين امثال ارثر كوستلر . ولا بأس ان ننتظر كاتبا عربيا يشهر عالميا برواية واحدة ثم يحافظ اسمه ، وقد اقترن باسم روايته ، على شعبيته بين القراء في كل مكان ، كما اقترن اسم كوستلر برواية « ظلام في النهار » التي تصور السالسة ولم تعرض بانه واحدة من رواياته التي كتبها عن شبان اليهود والصهيونية .